السياق بين البلاغة العربية والنظرية التداولية في خطب سيدنا عمر بن الخطاب

م. ولاء محمد إبراهيم أبو الخير
معيدة بقسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة السويس

تَهتم الدراسات التداولية بالجانب التَواصلي بين البشر؛ وكيفية استعمال اللغة في المواقف المختلفة ومعرفة أغراض المتكلم وأحوال السامعين والظروف المحيطة بهم فهي "علم جديد للتواصل يسمح بوصف وتحليل وبناء استراتيجيات التخاطب اليومي والمتخصص بين المتكلمين في ظروف مختلفةٍ"[١] وكذلك ركزت البلاغة العربية على الجانب التواصلي بين البشر؛ وكيفية إبلاغ وإيصال الكلام إلى ذهن السامع من جهة المتكلم؛ فالبلاغة في اللغة تدل على الوصول والانتهاء إلى الغاية المرادة؛ إذ جاء في لسان العرب ...بلغ الشيء يبلغه بلوغًا وبلاغة: توصل وانتهى وتبلغ الشيء: وصل إلى مراده، والبلاغ ما يتبلغ به؟ ويتوصل إلى الشيء المطلوب؛ والبلاغ ما بلغك، والإبلاغ: الإيصال[٢]:

ومن هنا تبدو العلاقة واضحة بين البلاغة التي ترمي إلى التواصل وبين التداولية التي تدرس أقطاب عملية التواصل من:

مرسِل ———————————— رسالة

———————————— مرسَل إليه

ويمثل المرسِل(المتكلم) والمرسَل إليه(المتلقي) قطبيْ عملية الاتصال؛ لأن أي خطاب بصفة عامة لا يقوم على أحدهما دون الآخر؛ فالمتكلم له دور خاص في عملية التواصل أثناء الكلام؛ إذ لابد أن يكون صاحب قدرة بلاغية تؤدي إلى إبلاغ كلامه للسامع والتأثير فيه؛ فهو سيد الموقف الخطابي وكذلك هو المسؤول أولًا وأخيرًا عن الخطاب، ويتصرف فيه بحسب الموقف الخطابي الموجود فيه، وبحسب وضعية المخاطب وخلفيته عن هذا الموقف، والمتلقي هو مكمّل ومتمّم الخطاب، فبدونه لا يكتمل هذا الموقف، وهو المسؤول عن تأويل الخطاب حسب المناسبة التى قيل فيها، والخطاب هنا هو الممر الرابط بين الخطيب والمتلقي، وفق سياق معين يتعلق بالأوضاع الداخلية والخارجية للموقف؛ وعرف هذا السياق في النظرية التداولية ب(السياق التداولي) إذ إنّه من أهم الأعمدة التداولية؛ والذي يعتبر أداة إجرائية تساعد بشكل كبير في تأويل مقاصد المتكلم من جهة ومقاصد المتلقي من جهة أخرى؛ فإنّ أي فهم لخطاب لغوي معين لا يمكن تحقيق

الغاية منه إلا إذا قمنا بمعرفة الأوضاع السياسية والاجتماعية والتاريخية الخاصة بهذا الخطاب والسياق الذي قيل فيه؛ وهذا السياق هو ما عُـرف فـي البلاغـة العربية ب (لكل مقام مقال) وتتجلى هنا أهمية هذه الأقطاب في العملية التواصلية لتحقيق غرض التفاعل والتواصل الفكري، وهذا ما ترمي إليه البلاغة العربيـة والتداولية وتعمل على معالجته والبحث فيه.

وإن تحدثنا عن هذه الأوضاع والسياق الذي وجدت فيه فإنّنا نجد أن خطب (سيدنا عمر بن الخطاب) خير مثال نظهر من خلالها فكرة السياق التـداولي أو عُرف في البلاغة العربية بالمقام؛ فالخطابة عامة وسيلة أساسية لإيصال الأفكار وتحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية والإنسانية والأدبية، والمقاصد الحوارية؛ ولهذا جلبت اهتمام البلاغيين والتداوليين، ولعلّ هذا ما جعلني أفضّل دراستها عن باقي النصوص الأدبية؛ فقد أثارت الخطابة اهتمامي دون غيرها من الصناعات الكلامية، لأنها تعتبر طريقة مثلى للحوار والتحاور بين أفراد العملية التواصلية، ونستطيع من خلالها أن نتوج فكرة السياق التداولي؛ وبخاصة أنّ الخطابـة فـي عهد الفاروق شهدت ازدهارًا كبيرًا بفضل ما تميّز به من فصاحة لسان، وعرض بيان، وسرعة بديهة، فتميزت خطبه بالتنوع والشمول وذلك بتعدد سياقات القول ومقاماتها بحسب ما تقتضيه الحاجة وحال المسلمين أثناء إلقائه للخطبـة، فكـان نتاج ذلك كم هائل من الخطب التي برهنت على أنه خطيبًا من الدرجة الأولـى يتبوّأ في ميدان الخطابة مكانة عالية جعلت خطبه من أهم الخطب فـي الدولـة الإسلامية، لاشتمالها على الخطب الدينية والسياسـية والاجتماعيـة والإنسـانية والمقاصد الحوارية بينه وبين المسلمين.

وكما التقت التداولية مع البلاغة العربية من خلال فكرة التواصل اللغوي؛ فنلاحظ ارتباطهما من خلال نقطة رئيسية أخرى ألا وهى مبدأ الإفادة، ونود أن نشير إلى أن هذا المبدأ تحقق من خلال فرع من فـروع البلاغـة العربيـة ألا وهو(علم المعاني) الذي تناول تعريفه كثير من علماء البلاغة العربية؛ وسـوف نحاول من خلال التعريف توضيح مبدأ الإفادة الذى يربط بين التداولية وبين علم

المعاني وهذا التعريف هو تعريف ابن خلدون لعلم المعاني "هذا العلم هو الحادث في الملة بعد علم العربية، وهو من العلوم الإنسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد الدلالة للمعاني، ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة عليه، لأنّه من علم الإفادة وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه؛ وإذا لم تشتمل عليه منها؛ فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامه واسع، ولكل مقال عندهم مقام يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة "[٣] ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا أن علم المعاني يهتم بمبدأ الإفادة أو ما يسمى في التداولية بمبدأ القصد؛ وقد ركز علماء البلاغة اهتمامهم بهذا المبدأ من خلال مبحث (أحوال الإسناد الخبري) الذي هو فرع من فروع علم المعاني؛ وسوف يتطرق البحث إلى الربط بين البلاغة العربية وبين التداولية من خلال هذا المبحث فقط، فالتداولية تلتقي مع البحث البلاغي من خلال (أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند والمسند إليه) في نقطة رئيسية ألا وهى أن التداولية تَعني المقصدية وكذلك أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند والمسند إليه من (ذكر وحذف وتقديم وتأخير وتعريف وتنكير) لكل حال من هذه الأحوال مقصد وغرض ونحن نبحث عن المقصد والغرض وهذا هو صميم عمل التداولية."والمقاصد التي لا تتعلق بالوضع ؛ فإنّها تتعلق بالسياق والنسق وما ينتج عن ذلك من معانٍ جديدة، فيها تفاوت عن وضعها التي كانت فيه ، وبذلك تتنوع الأغراض والمعاني ولا تقف عند حد، وهذا مرتبط بغاية المتفنن، وقبول المتلقي وما تثيره في نفسه تلك المعاني فى تراكيبها المختلفة"[٤] ومن خلال هذا التعريف تبين لنا أن هذه المقاصد والأغراض لابد أن تأتي فى سياق مناسب لها؛ فعلماء التداولية لا يدرسون الألفاظ والمعاني بمعزل عن سياقها الكلامي والحالي؛ كما أنّهم لا يدرسونها بعيدًا عن أغراض المتكلم ومقاصده.

من خلال ما سبق سنحاول الربط بين السياق التداولي وبين أحوال الخبر من حيث التوكيد وعدمه(أضرب الخبر)؛ والتطبيق على خطب سيدنا عمر بن الخطاب، ولكن قبل هذا نود أنْ نشير:

أولًا:

إلى أنّ البلاغيين قسموا الإسناد الخبري بالنظر إلي المخاطَب وحالته النفسية وحركته الذهنية إلى ثلاثة أقسام:

أ- **الإسناد الخبري الابتدائي:** ويُستغنى في هذا النوع من الخبر عن المؤكدات التي تقوي الحكم الإسنادي لأنه يلقى إلى مخاطَب خالي الذهن من الحكم وليس لديه معرفة بالمعلومات التي سيقدمها المتكلم له.

ب-**الإسناد الخبري الطلبي:** تتسم الجملة الخبرية في هذا النوع بوجود مؤكِد واحد يقوي الحكم ويثبته في ذهن المتلقي لأن المتلقي يكون متحيرًا ومتردّدًا وحركته الذهنية تتميز بالتردد تجاه مضمون الحكم الذي يوجهه إليه المتكلم، فالمتكلم هنا يكون حريصًا على توصيل الخبر إلى المتلقي وتأكيده بأداة توكيد ليحقق غايته، فنفس المتلقي تكون مترددة وتحتاج إلى يقين "وإذا ألقاها إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الاستناد فهو منه بيْن بيْن لينقذه عن ورطة الحيرة"[٥]

ج- **الإسناد الخبري الإنكاري:** وهو المستوى الثالث لأحوال الإسناد الخبري من حيث التوكيد، ويتوجّه إلى مخاطَب رافض للحكم وليس لديه قبول له؛ لذا وجب توكيد الخبر له بقدر إنكاره قوةً وضعفًا، فكلما اشتد في الإنكار زادت الجملة الخبرية بمؤكدين أو أكثر- تبعًا لدرجة إنكاره- لتقوية الحكم وإقناع المتلقي بقبوله"[٦]

ثانيًا:

سنتكلم عن مفهوم السياق التداولي ولكي نتوصل إلى مفهومه التداولي لابد من الحديث عن مفهومه في المعنى المعجمي أولًا؛ ثمّ مفهومه في الموروث البلاغي العربي ثانيًا.

مفهوم (السياق) لغةً:

يُعد المفهوم اللُغوي للألفاظ الركن الأساسي في تحديد المعنى الاصطلاحي وتوضيحه، بل إنه لا يتضح إلا من خلاله؛ وسوف نتناول المفهوم اللُغوي للسياق كما ورد في بعض المعاجم.

ففي (أساس البلاغة) للزمخشري، يذكر (السياق) قائلاً: "يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتُك بالحديث على سَوْقِه: على سَرْدِه"[٧] ، كما جاء في (لسان العرب): "انساقت وتساوقت الإبل تساوُقًا إذا تتابعت، والمساوقة: المتابعةكأن بعضها يسوق بعضًا"[٨]

ومن هنا يتضح أنّ مفهوم السياق في المعجم يدور حول عرض الحديث بطريقة تحمل ارتباطًا وترتيباً، كما يحمل معنى التتابع والتوالي.

مفهوم (السياق) بلاغيًا:

عرِف البلاغيون العرب فكرة (السياق) من خلال دراستهم للمقام، أو ما عُرف بمقتضى الحال، وكذلك من خلال العبارة الأخرى (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) فالمقام لديهم له دور كبير في المعنى فقد اهتدوا في وقت مبكر إلى أهمية الإحاطة بملابسات الكلام من ملاحظة للسامع والمقام وظروف المقال وما يقوم بينهما من روابط.

وقد كان الكلام على (مقتضى الحال) من أعمدة البحث البلاغي على مر العصور، فقد تناوله (الجاحظ) في (البيان والتبيين) حين قابل بين فكرة الحال والمقام، وبين أحوال السامع والمتلقي ومقاماتهم الاجتماعية ومتى يكون الكلام مناسبًا للسياق الذي يُقال فيه "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين..."[٩]

ثمّ يأتي (أبو هلال العسكري) متناولاً المقام ويؤكد على مراعاة حال المُخاطَبين وظروف الخطاب، حين يرى "أنّ على الخطيب ألا يكلّم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوّقة، لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام وأحسن الذي قال: لكل مقامٍ مقال"[١٠]

واستخدم (السكاكي) مصطلح (مقتضى الحال) لمفهوم (السياق) حيث يقول في كتابه (مفتاح العلوم): "اعلم أنّ علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره (...) وكذا، إذا لفظ بالمسند إليه، وهكذا إذا عُرّف أو نُكّر أو قيد أو قُدّم أو أخر؛ على ما يطلعك على جميع ذلك شيئًا فشيئًا مساق الكلام في العلمين بإذن الله تعالى"[١١]

يُلاحظ من كلام السكاكيّ أنّه استخدم المصطلحين معاً (مقتضى الحال والسياق) فقال (ليُحترز عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره) وقال أيضًا (على ما يُطلعك مساق الكلام في العلمين) ولفظ (مساق) (السياق) بمعنى واحد لأن كليهما مصدر لعل واحد (ساق يسوق مُساقًا ومَساقًا)

كما تكلّم السكاكي عن (المقام) بصورة دقيقة في قوله "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية (...) وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكلٍ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[١٢]

ثم نراه يتكلم عن قول البلاغيين (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) فيقول: "ثم إذا شرعت في الكلام، فكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسمّيه مقتضى الحال"[١٣]

ونلاحظ أنّ هذا القول يشتمل على عنصرين أساسيين تتفرع منهما كل العناصر المكوّنة للسياق، وهذان العنصران هما: المقام والمقال، والمقام "هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءًا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له صلة بالمتكلّم وكل جوانب الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ والجغرافيا والغايات والمقاصد"[١٤]

وإذا قمنا بتحليل كلام السكاكي عن أحوال الإسناد الخبري وأغراضه، فنجده حين يتحدث عن الحالة التي تقتضي ذكر المسند إليه من حيث حال

السامع، إذا كان مستحضرًا له، عارفًا القصد إليه عند ذكر المسند، والترك راجع إمّا لضيق المقام (وهو يقصد هنا السياق الخارجي) وإما للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر (وهو السياق الداخلي) وإما لتخييل أنّ في تركه تعويلًا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر (حال السامع) وإمّا لإيهام أنّ في تركه تطهير للسان عنه، أو تطهيرًا له عن لسانك، وإما للقصد إلى عدم التصريح ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مسّت إليه حاجة (حال المتكلّم)[١٥]

ومن ثم، نلاحظ أن فكرة (المقام) عند السكاكي تشمل أربعة أحوال: (حال المُخاطَب- حال المُخاطِب- السياق الداخلي- السياق الخارجي) وتعتبر هذه الأحوال الأربعة مترابطة يُشكّل تفاعلها جميعًا (المقام) أو (سياق الحال) الذي تتحقق ضمنه عملية التواصل وبمراعاة السكاكي لهذه الأحوال تتجلى مراعاته للجوانب التداولية في الخطاب؛ وهذا لا يعني جدّة النظرية التداولية، وإنما يؤكد أن التداولية تردد صداها عند البلاغيين العرب قديمًا من حيث مفهومها دون مصطلحها.

إذن، اهتمام البلاغيين بمطابقة المقام لمقتضى الحال يثبت البعد التداولي للبلاغة العربية؛ فكما ربطت البلاغة بين المقام وبين حال السامع، والمتكلم، ربطت التداولية بين السياق (المقام) وبين حال السامع والمتكلّم.

السياق التداولي

من المفاهيم التداولية التي لاقت نصيبا وافراً من الدراسة والاهتمام، موضوع (السياق) حيث تستند عليه اللسانيات التداولية في دراستها للغة أثناء الاستعمال، فهو "محل اهتمام القضايا التداولية جميعًا لأن تحليل الجمل يخضع إلى السياق، وكذلك تحليل أفعال الكلام، وقوانين الخطاب، ومسائل الملفوظية والقضايا الحجاجية وغيرها"[١٦]

وقد قسّم المحدثون مصطلح (السياق) إلى مفهوميْن:

أ- **المفهوم البنيوي:** ويسمى (السياق اللغوي) أو (السياق الداخلي) وكذلك (السياق النموذجي) ويعرّفه الشّهري بأنّه "تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب، من وحدات صوتيّة، ومعجمية، وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية"[١٧] وهذا المفهوم من السياق يطلقون عليه أيضًا (سياق النص) أو (نحو النص) أو (سياق القرائن) أما البلاغيون، فيطلقون عليه (الفصل والوصل).

ب- **المفهوم التداولي:** ويسمى (سياق الموقف) أو (سياق الحال) أو (السياق الخارجي) ويُعرف بأنّه "الجو العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات"[١٨]

ويمكن أن تختلف السياقات وتتعدد حسب وضعيات الخطاب المختلفة، فهناك أنواع كثيرة من السياقات التي تناولها علماء التداولية أمثال (بريت، وأولمان، وفيرث، وفرانسواز أرمينكو، وغيرهم)

فقسّم (أولمان) السياق إلى نوْعين:

- **السياق اللُغوي:** ويتمثّل في العلاقات الصوتية والصرفية، والنحوية والمعجمية.
- **السياق غير اللُغوي:** ويضم السياق الاجتماعي، والسياق الثقافي، والسياق العاطفي، وسياق الموقف الذي يُسمى (سياق الحال) وهذا السياق يمثّل السياق الخارجي للحدث الكلامي كما تحدث عنه (فيرث) عند تقسيمه للسياق.

أمّا (فرانسواز أرمينكو) فقد تناولت السياق من خلال اعتبارين[١٩]:

الأول: وقد أطلقت عليه (التنوّع) وقسّمت السياق فيه بحسب نوعه وحددت كل نوع على حدة، فذكرت أربعة أنواع (السياق الفعلي- السياق الظرفي- السياق الإحالي أو المرجعي- السياق الوجودي)

الثاني: وأطلقت عليه (المفهوم الموحّد) وذكرت أنّ مفهوم السياق مفهوم موحّد وبسيط يستند **إلى** العوالم الممكنة انطلاقًا من معالجة شكلية وموّسعة للتداولية؛ فمن أجل التعبير عن قضية من الضروري التمييز بين الإمكانيات وهذه المقدرة أساسية لدى المتكلّم لأنّ مجموع العوالم الممكنة المفيدة في مقام معيّن هو المجموع السياقي.

ولكن هذا التقسيم وجّهت إليه عدة انتقادات بعدم الدّقة، حتى جاء (عبد الهادي الشهري) وتحدّث في كتابه (استراتيجيات الخطاب) عن تقسيم (بريت) للسياق، ونقل عنه خمسة أنواع من السياقات يطابقها العدد نفسه من التداوليات، وهذه الأنواع هي:

١- السياق النّصي أو سياق القرائن أو نحو النص

٢- السياق الوجودي

٣- السياق المقامي

٤- سياق الفعل

٥- السياق النفسي

وذكر أن هذه الأنواع من السياقات متداخلة ومترابطة، فلا يستغنى أيّ منها عن الأنواع الأخرى، وبهذا يصبح المنهج التداولي كافياً، لأنه يشير إلى وجهات نظر معيّنة وتوجّه معروف نحو اللغة والعلامات الأخرى[٢٠]

ومن خلال الاستعراض السابق لأنواع السياق التداولي، نجد أن تلك التقسيمات تناولت (سياق الموقف) كأحد أنواع السياقات التداولية وقد كثر الحديث عنه وتعددت مرادفاته، فمن الباحثين من أطلق عليه (السياق الخارجي) أو (السياق غير اللُغوي)؛ وهو المفهوم نفسه الذي يتّحد مع حديث البلاغيين عن (سياق الحال) أو مصطلح (المقام).

عناصر (السياق) عند البلاغيين العرب:

يتكون السياق عند البلاغيين العرب من ثلاثة عناصر أساسية (المتكلّم- المخاطَب- الظروف المحيطة بالموقف) وقد تطرق مسعود صحراوي في كتابه (التداولية عند العرب) إلى آراء البلاغيين العرب حول العناصر الأساسية للسياق في كل خطاب أمثال (عبد القاهر الجرجاني وجلال الدين السيوطي) واستنتج صحراوي أنّ البلاغيين العرب فهموا من اللغة أنّها "لفظ معين يؤديه متكلّم معيّن في سياق ومقام معيّن وموجّه إلى مخاطَب معيّن لأداء غرض تواصلي معيّن، وليست مجرد منظومة من القواعد الذهنية المجرّدة كما هو الشأن في التصور البنيوي الصوري"[٢١]

وصنّف التداوليون العناصر المكوّنة لسياق الخطاب إلى ثلاثة أصناف، هي: (المرسِل، المرسَل إليه، السياق الخارجي) واستخدم عبد الهادي الشهري مصطلح (العناصر المشتركة) بدلاً من (السياق الخارجي) وقد ذكر من هذه العناصر العلاقة بين المتخاطبين، والمعرفة المشتركة بينهما. أمّا الدكتور طه عبد الرحمن فذكر أن للسياق عناصر ثلاثة، هي:

أولاً: العنصر الذاتي: ويشمل معتقدات المتكلّمومقاصده واهتماماته ورغباته.

ثانياً: العنصرالموضوعي: أي الوقائع الخارجية (الظروف الزمانية والمكانية)

ثالثاً: العنصر الذواتي: ويشمل المعرفة المشتركة Mutual Knowledge بين المتخاطبين، أو ما يسمى بالأرضية المشتركة Common Ground وهي معرفة معقّدة التركيب[٢٢]

وهذه العناصر وأهمهم العنصر الشخصي الذي يمثله طرفي الخطاب (المُخاطِب والمُخاطَب) ودورهما في الخطاب سوف نتحدث عنهما تفصيلاً عند الحديث عن (قطْبيْ العملية التواصلية) بين البلاغة وبين التداولية.

المخاطِب والمخاطَب بين البلاغة وبين التداولية

لم يغفل الدرس البلاغي العربي عناصر العملية التواصلية مخاطِب ومخاطَب وخطاب وهدف وشروط كل من هذه العناصر، فكما حاولنا سابقًا الربط بين بعض المفاهيم التداولية الحديثة وبين فكرة مقتضى الحال في البلاغة العربية، وكذلك الربط بين السياق في اللسانيات التداولية وبين المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال) سنحاول أيضًا إلقاء الضوء على قطْبيْ العملية التواصلية (المخاطَب والمخاطِب) في البلاغة العربية والتداولية.

أ-تداولية المُخاطِب في البلاغة العربية:

لو رجعنا إلى تعريف البلاغة الذي يقول "سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[٢٣] سندرك أن هدف البلاغة هو نجاح المخاطِب في إيصال ما يريده إلى المتلقي فقد ركزت على المتكلم لأنه هو الذي يتصرّف في اللغة ويوظفها لصالحه ولخدمة أهدافه، فالمتكلم هو (فاعل الخطاب) كما قال العسكري ويعتبر المتكلم ذا أهمية كبيرة في الخطاب لدى البلاغيين، فقد أشار السكاكي في (مفتاح العلوم) عند حديثه عن المتكلم إلى ضرورة أن يكون الكلام صادراً عن متكلم بليغ، وليس مجرد متكلم عادٍ، والمتكلم لابد له من امتلاك الكفاءة اللغوية وجعل كلامه مناسبًا للحال أو المقام الذي يقال فيه مع مراعاة حال السامع ومقامه "فمقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار"[٢٤]

فالمتكلم يسعى إلى التأثير في السامع وإقناعه بكلامه؛ فهو المسؤول الأول في العملية التواصلية عند حديثه أن يكون المعنى مؤثرًا مقنعاً للسامع، فكما أنّ الإقناع لدى المتكلّم هو وظيفة البلاغة فهو أيضًا وظيفة التداولية، فالمتكلم في التداولية يبحث عن الطريقة المثلى "لينتج خطابًا يؤثر به في المرسَل إليه، كما أن المرسَل إليه يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسِل كما يريدها عند إنتاج خطابه لحظة التلفّظ وهذه الإجراءات تتبلور عبر تقدير ذهني عام ومحتمل وفقًا لعناصر السياق"[٢٥]

ومن هنا، تشترك البلاغة مع التداولية في اهتمامهم بالمتكلم ودوره في إقناع السامع بمقصده من الرسالة التي يلقيها عليه؛ لكنها تختلف عنها في الإقناع الجمالي وليس مجرد الإقناع التداولي الخبري النفعي. فقد تعددت الدراسات التداولية التي تهتم بتداولية المتكلم بدايةً من طريقة أدائه إلى طريقة إلقائه، والدرس البلاغي أيضًا لم يغفل المتكلم وما يُشترط أن يتّصف به عند إلقائه للخطاب وقدرته البلاغية على توظيف قواعد اللغة.

فوجه التداولية في المتكلم "يكمن في أنّه يُنتج كلامًا، هذا الكلام هو الذي افتعله ويقصد به شيء ويهدف به إلى نتيجة"[٢٦] وهو ما يتماشى مع وجه البلاغة في المتكلم عند استخدامه "للطريقة أو الوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسّنات وإبانه وإظهار وإقناع"[٢٧]

ب- تداولية المُخاطَب في البلاغة العربية:

اعتنى البلاغيون بالمخاطَب من خلال بحوثهم حول فكرة (المقام) و (مقتضى الحال) فإذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالحال إذًا هو حال المخاطَب، فكما اهتمت البلاغة بالمتكلم اهتمت أيضًا بالمخاطَب وظروفه الاجتماعية والنفسية والثقافية غيرها واشترطت على المتكلم مراعاة هذه الظروف عند إلقائه رسالة على السامع ومراعاته أيضًا لأقدار وطبقات المستمعين "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازي بينهما وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[٢٨]

كما أشارت البلاغة إلى ضرورة مراعاة المتكلم لظروف السامع الاجتماعية وذلك عند استخدامه للألفاظ التي يستعملها عند إلقائه رسالة على المخاطَب، بحيث لا يستخدم المخاطِب ألفاظًا غريبة على المستمع "فإن الوحشيْ

من الكلام يفهمه الوحشيْ من الناس، كما يفهم السُّوقيْ رطانة السُّوقيْ"[٢٩] لأن عند استخدامه لألفاظ لا تناسب المستمع فسوف "تذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"[٣٠]

ونبّهت البلاغة أيضًا إلى ضرورة مراعاة المتكلم للناحية السياسية لدى المتلقي حتى يتسنى له إحراز المنفعة من الخطاب وتجنب غضب السامع ومراعاة حال السامع التي تستدعي الإفهام والتي تحدّثنا عنها في الفصل الأول من الدراسة (مستمع خالي الذهن من الحكم، مستمع متردد في قبول الحكم، مستمع منكر للحكم) وكل مستمع يحتاج إلى أسلوب معيّن في مخاطبته. ومن هنا؛ تبرز فاعلية المخاطَب في العملية الإبلاغية التواصلية لأن الخطاب يُنتَجمن أجله لأنه "كما يحمل الخصائص التمييزية للمتكلم فهو ينبّئ بطبيعة السامع الذي أُنشئ من أجله، بل أنّ الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلّم وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة، التي تتقاطع فيها البلاغة العربية"[٣١]

أمّا حديث التداوليون عن السامع فيتلخّص في قدرته على استقبال الخطاب وتفكيك معناه وإعادة بنائه بالاستناد إلى العمليات الذهنية وفهمه لغرض المتكلّم من الخطاب، ووجه التداولية في السامع تكمن في أنّه "عنصر أساسي في إنتاج الخطاب، لأن المتكلّم حين يريد إبلاغه بشيء ما فإنّه يراعي حاله والمقام الذي هو فيه"[٣٢]

ومن هنا؛ نلاحظ أنّ البلاغة اهتمت بالمتكلم ووضعت له شروط ووسائل يستخدمها عند إنتاجه للخطاب تضمن له الاتصال الناجح مع المتلقي فيصل المعنى إلى قلبه وعقله ويؤثّر فيه ويحقق هدفه من الخطاب؛ "فالبلاغة في عمق تكوينها وأهدافها هي التداولية"[٣٣]إذ تعتمد كلٌّ منهما على قطبيْ عملية الاتصال[٣٤]:

فإذا كانت البلاغة ترمي إلى (التواصل) وتعتمد على مهارتيْ (الإقناع والإمتاع) فإن التداولية تدرس أقطاب عملية التواصل من مرسِل ومرسَل إليه، ورسالة، وكذلك استراتيجيات الخطاب المصاحبة لتلك العملية التواصلية.

وبتحليل خطب سيدنا عمر بن الخطاب اتضح لنا مدى وثوق الصلة بين أقطاب العملية التواصلية (المرسِل- المرسَل إليه- الرسالة) من وجهتي النظر البلاغية والتداولية، كما يتجلى في التحليل التالي لخطبة (أريد العدل والسوية!): "عن سُفْيانَ بن وهب الخَوْلَانِيّ قال : شهدتُ عمر بن الخطاب بالجَابية قال، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : "أما بعدُ فإنّ هذا الفَيْئَ أفَاءَ الله عليكم : الرَّفيعُ فيه والوَضيعُ بمنزلةٍ ليس أحدٌ أحقَّ من أحدٍ إلا ما كان من هذين الحَيّيْن: لخْم وجُذَام فإنى غير قَاسم لهم شيئًا، فقام رجل من لخمٍ فقال: يا ابن الخطاب أنشدُك الله فى العَدْل والسويّةِ فقال : إنما يُريدُ ابنُ الخطاب العدْلَ والسويّةَ والله إنى لأعلم لو كانت الهجرة بصنْعاءَ ما خرج إليها من لَخْمٍ وجُذَام إلا القليلُ فلا أجْعلُ من تكَلّف السفرَّ وابْتاع الظَّهْرَ بمنزلة قوم إنَّما قاتلوا فى ديّارهم. فقام أبو حُدَيْرة حينئذٍ، فقال: ياأمير المؤمنين إن كان الله سَاق إلينا الهجْرةَ فى ديارنا فنصرْنَاها، وصدَّقْناها أذَاكَ الذى يُذْهبُ حَقَّنا فى الإسلام؟ فقال عمر: والله لأُقَسمَنَّ لكم ثلاثَ مرات؛ ثم قسَّم بين الناس فأصاب كلُّ رجل منهم نصفَ دِينار

وإذا كانتْ معه امرأَتُهُ أعطاه دينارًا، وإذا كان وحْده أعطاه نِصفَ دينار، ثم دعا ابن قَاطُورَا صاحبَ الأرض فقال: (أخْبرْنى ما يكفى الرجلُ من القُوت فى الشهر واليوم)؟ فأتى بالْمُدْىِ والقِسْط فقال: يكفيه هذان المُدْيان فى الشهر وقِسْطُ زيتٍ، وقسط خلَّ. فأمر عمر، رضى الله عنه بمُدْيَيْنِ من قمح، ثم طُحِنَا، ثم عُجنا ثم أدَّمَهُما بِقِسْطَينِ زَيْتا، ثم أجْلَسَ عَلَيهما ثلاثينَ رجلا، فكان كَفَافَ شِبَعِهِمْ، ثم أخذ عمر المُدْىَ بيمينه والقسط بيساره، ثم قال: اللهم إنّى لا أُحِلُ لأحدٍ أن يَنْقُصَهُما بَعْدِى اللهم فَمَنْ نَقَصهُمَا فَانْقُصْ مِن عُمُره "[٣٥]

نجد فى الخطبة السابقة حوار بين المتكلم والمتلقى فالمتكلم (سيدنا عمر) يمتلك قدرة خطابية، وقدرة وكفاءة لغوية، وظّفَ هذه القدرة عند حواره مع الرعية توظيفًا بارعًا أزال به عامل الخوف والرهبة من داخلهم، حتى يتسنى للمتلقى(المسلمين) استقبال الخطبة وتفكيك رموزها وشفراتها لبلوغ مرمى المتكلم من الخطبة، ويمكن ملاحظة مراعاة سيدنا عمر بن الخطاب لعدة نقاط أساسية توضح بعض الشروط التداولية والأهداف البلاغية الموجودة في الخطبة:

١-تنبه المتكلم إلى حسن اختيار الظرف المناسب لقول الخطبة.

٢-اختيار المتكلم للظرف المناسب ساعده على اختيار اللفظ المناسب والبعد عن التكلّف وبالتالي، مراعاة النفسية الملائمة للمتلقي.

٣-اختيار المتكلم للألفاظ المناسبة للمعاني، مما يدل على مراعاته للسياق اللغوي الذي تُقال فيه الخطبة.

٤-اختيار المتكلم للكلام المناسب الذي يوصل القصد ويرمي إلى المنفعة (نفعية الخطاب)

٥-مراعاة المخاطِب (سيدنا عمر) لطبقات المخاطَبين وحالاتهم واختيار المعاني والألفاظ التي تناسب كل طبقة (المقام) فلابد للخطيب أن يراعي المقامات الخطابية وكل ما يتعلق بالمتلقي من ظروف سياقية وتواصلية.

٦-مراعاة سيدنا عمر للأسس السابقة تمكّن من التأثير في المخاطَب وإيصال هدف الخطاب وما يرمي إليه الخطاب إلى المخاطَب (الإقناع).

مما سبق، يمكن القول بأن سيدنا عمر بن الخطاب قد راعى بعض الأسس التداولية من حيث عناصر الخطاب ومقام وقصديته، كما راعى الغرض البلاغي من الخطبة الذي من شأنه إيصال المعنى للمتلقي دون تعقيد وتكلّف ليتحقق التواصل مع المتلقّي.

السياق التداولي التطبيقي في خطب سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه:

تنوعت جوانب الخطابة عند الفاروق عمر، فمنها ما هو ديني، أو سياسي، أو اجتماعي، أو عسكري، ويرجع هذا التنوّع لقوة الخطابة لديه، وما يملك من ملكة أدبية ولُغوية؛ وسوف نتحدث عن هذه الجوانب ونتطرق إلى مقامات الخطابة عنده استنادًا إلى تصنيف (محمد العمري) لمقامات الخطابة الذي أورده في كتابه (بلاغة الخطاب الإقناعي) علمًا بأن هذا التصنيف وُجّهت إليه بعض الانتقادات لصعوبة التفريق بين الخطب السياسية والاجتماعية والدينية، فكثيرٌ من الخطب التي دُعيت اجتماعية يمكن اعتبارها دينية أو سياسية، وهو مالمسناه بالفعل عند تصنيف الخطب، ولكنّنا سنعتمد على تصنيف خطب سيدنا عمر قدر الإمكان للضرورة المنهجية، وإنزال نصوص الخطب في مقامات تواصلية على النحو الآتي:

١- مقام الخطابة الدينية[٣٦]

٢- مقام الخطابة السياسية

٣- مقام الخطابة الاجتماعية

أولاً: مقام الخطابة الدينية عند الفاروق عمر:

لقد بلغت خطب سيدنا عمر بن الخطاب الدينية الذروة من الفصاحة والبلاغة لاعتمادها على القرآن الكريم، وعلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ويعتبر مقام الخطابة الدينية أهم مقام تواصلي عرفته الخطابة لارتباطه بموضوعات تتعلّق بالدين.

ويُقسّم مقام الخطابة الدينية إلى ثلاثة أقسام:

أ- مقام التعليم ب- مقام الوعظ ج - مقام المناظرات المذهبية

أ- **مقام التعليم:**

يحرص المخاطِب في هذا المقام أن تكون العلاقة بينه وبين المخاطَب في حالة تقبل وتصديق وعادة ما يكون المخاطَب في هذا المقام خالي الذهن يتقبل المعرفة التي يلقيها إليه سيدنا عمر.

ونذكر هنا بعض الخطب الدينية التي اتسمت بطابع التعليم، ومنها خطبة سيدنا عمر بن الخطاب عندما خطب لحجاج بيت الله الحرام عند باب الكعبة، فقال: "مَا مِنْ أحدٍ يجئُ إلى هذا البيتِ، لايَنْهَزُه غيرُ صلَاتِهِ حتى يَسْتَلِمَ الحَجرَ إلا كُفِّرَ عنه مَا كان قَبْلَ ذلك"[٣٧]

وقد تميزت الخطبة السابقة بالإيجاز المؤدي إلى توصيل المعنى للمخاطَب في أبسط صورة وباستخدام القليل من الألفاظ للتعبير عن الكثير من المعاني، وهو ما يدل على مراعاة سيدنا عمر للسياق الذي يقول فيه خطبته، فقد راعى أنّ الحجاج في بيت الله الحرام وأذانهم مهيّئة لإقامة شعائر الله، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الخطب الطويلة في ذلك الوقت.

كما أنّ سيدنا عمر لم يستخدم المؤكّدات لأنه راعى أن المتلقّي خالي الذهن، مما يجعله يتقبل المعرفة الملقاه، ولا يحتاج إلى أساليب الإقناع والبرهنه، ولهذا غلب على هذا الصنف من الخطب الطابع التوجيهي والتربوي، فالخطابة هنا "لا تهدف إلى ذكر معلومة ونقل معرفة كما أنها لا تقف عند تحقيق الغاية الجمالية الإمتاعية بل تتجاوز هاتين الغايتين لتصبحا معا وسيلة ومقدمة لغاية أم هي غاية التحول بهذه المعرفة وأساليب صياغتها إلى منجز سلوكي يحقق الغاية التربوية في الواقع الفعلي"[٣٨]

وتراوحت خطب سيدنا عمر التعليمية بين الإيجاز والإطناب، ومن الخطب التي استخدم فيها الإطناب لأن المقام يتطلّب التوضيح والشرح،على سبيل التمثيل لا الحصر: خطبة (اعملوا بالقرآن تكونوا من أهله)[٣٩] وخطبة (نقيم أمر الله في القريب والبعيد)[٤٠] وخطبة (أقلّوا اللغو في بيوت الله)[٤١] أما أمثلة الخطب التي استخدم فيه الإيجاز: خطبة (عيد الفطر وعيد الأضحى)[٤٢] وخطبة (التحيات لله)[٤٣] وخطبة (على رِسْلكم)[٤٤]

ب-مقام الوعظ:

في هذا المقام يحاول المتكلم التأثير في المتلقي لحملهِ على تعديل سلوكه وتغيير موقفه، لأن "المستمع في الخطابة الوعظية موضوع موضع الغافل المُقصّر فيما يجب عليه"[٤٥] فقد تناول سيدنا عمر بن الخطاب في خطبة هذا المقام (مقام الوعظ) موضوعات وعظية ذات وظيفة توجيهية إرشادية ونجد هذا النوع في خطب كثيرة، منها على سبيل المثال: خطبة (قليل في رفق خيرٌ من كثير في عنف) حيث قال: "أيُّها الناسُ، إنّ بعض الطمع فقرٌ، وإن بعض اليأس غنىً [وإن الرجل إذا أيس من شيء استغنى عنه] وإنكم تَجْمَعُونَ ما لا تأكلونَ، وتَأْمُلُونَ ما لا تُدركون، وأنتم مؤجَّلون في دار غُرورٍ، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تُؤْخَذُون بالوَحْي، من أَسَرّ شيْئًا أُخِذ بعلانِيَتِه، فأظهروا لنا أَحْسَنَ أخلاقكم، والله أعلمُ بالسرائر، فإنّه من أظهر شيئًا، وزعم أن سريرَته حَسَنَةٌ لم نُصَدِّقْه! ومن أظهَر لنا علانيةً حسنةً ظننَّا به حَسَناً.

واعلموا أن بعضَ الشُّحِّ شُعْبَةٌ من النِّفاق، فأنْفِقُوا خَيْرًا لأنفسكم وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ.

أيها الناس أطيبوا مَثْوَاكُم وأصلحوا أموركم، واتقوا الله ربكم، ولاتُلْبِسُوا نساءكم القَبَاطِيَّ فإنّه إن لم يَشِفّ فإنّه يَصِفُ.

أيها الناس، إنِّي لَوَدِدْتُ أن أَنْجُو كَفَافًا لا لي ولا عَلَيَّ وإنَّي لأرجو إن عُمّرتُ فيكم، يسيرًا أو كثيرًا، أن أعمل بالحق فيكم، إن شاء الله، وأن لا يبْقَى أحد من المسلمين، وإن كان في بيته إلا أتاه حَقُّهُ ونصيبهُ من مَالِ الله، ولا يُعْمِلُ إليه نَفْسَهُ، ولم يَنصَب إليه يوما، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، وَلَقَلِيلٌ في رِفقٍ خيرٌ من كثير في عُنْفٍ، والقتْل حَتْفٌ من الحُتُوف يصيب البر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه، وإذا أراد أحدكم بَعيرًا فَلْيَعْمِدْ إلى الطويل العظيم فليضْرِبْهُ بعصاه؛ فإن وجده حَدِيدَ الفؤاد فَلْيَشْتَرِه"[٤٦]

استخدم سيدنا عمر بن الخطاب في هذه الخطبة أسلوب التأكيد في أكثر من موضع، لأن المخاطَب هنا "يكون متناسيًا لما تعلم غافلاً عمّا ينتظره فيتطلّب حالة الحث على العمل والتخويف من العقاب"[٤٧]

والمخاطِب في هذه الحالة يلجأ إلى الموعظة الحسنة القائمة على الترغيب والترهيب في الوقت نفسه، ويحث المتلقي على العمل الصالح من أجل الفوز بالدنيا والآخرة، ويحذر من الطمع والشّح الذي يُورث الندم والحرمان من الجنه، وكذلك يلجأ المتكلّم إلى القوة الإقناعية التي يعزز بها موقفه حيث أن المقام يتطلّب استخدامه للأسلوب الإقناعي، بذكر الأدلة والبراهين الواقعية.

ويتكرر هذا في خطب وعظية عدة، مثل: خطبة (خلقكم لنفسه وعبادته)[٤٨] وخطبة (دعوة أعزّها الله)[٤٩] وخطبة (إيّاكم والبِطنةَ)[٥٠] وخطبة (اعملوا بالقرآن تكونوا من أهله)[٥١]ونجد في كل ذلك أن المتكلم (سيدنا عمر) يجمع في الخطب الدينية بين مقاميّ الوعظ والتعليم.

ج- مقام المناظرات المذهبية:

ينزل المخاطَب في هذا المقام منزلة المنكر الجاحد فيلجأ المتكلم إلى استخدامه للحُجج العقلية والنقلية التي تتناسب مع عقلية المتلقي وتتناسب أيضًا مع السياق الذي يقول فيه الخطبة.

وهنا يجب على المخاطِب توكيد (الأمر) الذي يتحدّث عنه في الخطبة للمتلقي بقدر إنكاره قوة وضعفًا، ونجد هذا النوع في أكثر من خطبة، مثل خطبة (إنما الحاجة لي) التي جاء فيها: "عن زيد بن ثابت أنّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه استأذن عليه يومًا، فأذِن له، ورَأْسُهُ في يد جَارِيَة له ترجِّلُهُ، فنزع رأسه فقال له عمر: دعْها ترجِّلك. قال: يا أمير المؤمنين لو أرسلْتَ إليَّ جئتُك! فقال عمر رضي الله عنه: إنّما الحاجةُ لي!! إنّي جئتك لتنظرَ في أمْر الجَدِّ. فقال زيد: لا والله ما يقول فيه. فقال عمر، رضي الله عنه: ليس هو بوحْي حتى نَزِيد أو نَنْقُصَ، إنما هو شيءٌ نراه فإن رأيتهُ وافقني تَبِعْته، وإلا لم يكن عليك فيه شيء. فأبَى زيد، فخرج عمر مُغْضَبًا قال: قد جئتُك وأنا أَظُنُّك سَتَفْرُغُ من حاجتي!! ثم

أتاه مَرَّةً أخْرى في الساعة التي أتاه المرة الأولى فلم يَزَلْ به حتى قال: فسأكتبُ لك فيه كتابًا. فكتب في قِطْعَةِ قَتَبٍ، وضرب له مثلاً: إنما مَثَلُه مَثَلُ شجرةٍ نَبَتَتْ على ساقٍ واحدٍ فخرج فيها غُصْنٌ، ثم خرج في الغُصْنِ غُصْنٌ آخر، فالساقُ يَسْقى الغُصْنَ، فإن قُطِعَ الغصنُ الأول رجَعَ الماءُ إلى الغُصْن، يعني الثاني، وإن قُطِع الثاني رَجَع الماءُ إلى الأول. فأتى به فخطب الناسَ عمر، ثم قرأ قطعة القَتَبِ عليهم ثم قال: إن زيد بن ثابت قد قال في الجد قولا وأنا أمضيته. قال: وكان أول جد كان فأراد أن يأخذ المال كله مال ابن ابنه دون إخوته فقسّمَهُ بعد ذلك عمر بن الخطاب"[٥٢]

يلاحظ هنا أن المقام مقام مناظرة، لكن سيدنا عمر في هذا المقام كان يعتمدعلى الحوار بينه وبين المتلقي خالٍ من الإنكار بل كان المخاطَب يراجعه ويوافق سيدنا عمر على كلامه، كما يلاحظ أنّ هذا النوع قليل في الخطب. وقد راعى سيدنا عمر في خطبه المواءمة بين الطبيعة الدينية لخطبه، وبين السياق الخارجي الذي تُقال فيه

ثانيًا: مقام الخطابة السياسية عند عمر بن الخطاب

بلغت الخطب السياسية في عهد عمر بن الخطاب أوجها فجاءت خطبه مليئة بالجوانب السياسية وهذه الخطب مختلطة أحياناً بالمعاني الدينية وأحيانًا أخرى ممزوجة بالجانب الحربي، والاقتصاي، بحيث تجعل المتلقي مستعدًّا لاستقبالها والاقتناع بها.

ويندرج تحت الخطابة السياسية[٥٣]:

أ- جميع الخطب المتعلقة بالعمل في سبيل بناء الدولة أو بسْط نفوذها:

نشأت الخطابة السياسية عند سيدنا عمر مرتبطة بقضايا الدين والعقيدة وشكلت أبرز مقامات التواصل الإقناعي حيث تناولت قضايا لصيقة بحياة الناس اليومية ومتعلقة بالعمل في سبيل بناء الدولة سواء كان هذا المقام مقام جهاد أو مقام طاعة أو مقام عصيان أو غير ذلك.

ونلمس هذا النوع بكثرة في خطب سيدنا عمر بن الخطاب، ومن أمثلة ذلك خطبة (عليكم بالغزو والجهاد) التي يقول فيها: "أيّها الناس عليكم بالغزو والجهاد ما كان حُلوًا خَضِرًا قبل أن يكون مُرًّا عَسِرًا ويكون ثُمَامًا قبل أن يكون حُطامًا فإذا انْتَاطَت المغازي وأُكِلَتِ الغنائمُ، واستُحِلّ الحرامُ فعليكم بالرِّباط، فإنّه خيرُ حِهادِكُم"[٥٤]

يحث المخاطِب في هذا المقام الخطابي الرعيةعلى الجهاد في سبيل الله معتمدًا أسلوب الترغيب الديني الذي يوضح فضائل الجهاد وقد أكد على فضل الجهاد بمؤكد واحد لأنه عالم بأن المتلقي متحيرًا ومترددا من أمر الجهاد لما له من صعوبة ورهبة في نفسه؛ ولهذا تجنب سيدنا عمر الإطالة في الخطبة مع توظيف مفرداته وعباراته كي تتضافر لأداء الغاية التي يريد توضيحها من خلال خطبته كما راعى السياق الخارجي للخطبة فجاءت موجزة مراعية لنفسية المتلقي ومحاولاً إقناعه بالجهاد في سبيل الله وأن يغزو لأن الغزو حُلوٌ خَضِرٌ، مع توفير الغنائم قبل أن يكون الغزو أمر عسير بعد ذلك ويصبح لا فائدة له. وقد وجدنا ذلك بكثرة في خطب سيدنا عمر بن الخطاب، مثل: خطبة (إنّك حديث السِّن)[٥٥] وخطبة (لا تخرجوا إلا بإذن!)[٥٦]وخطبة (اليهود أعداؤنا)[٥٧]

ب-خطب الصراع حول الخلافة والحكم داخل المجتمع الإسلامي:

نجد هذا النوع يتمثّل في مجموعة من الخطب على سبيل المثال: خطبة (السيف: نعم الوزير للحق!!) التي يقول فيها: "إنِّي قد علمتُ أنكم كَرِهْتُم قِيَامِي عَلَيْكم، ومن كَرِهَه منكم ممنْ ساءَه أَخْذٌ بحق، ودفْعٌ عن باطل وضرب عنق من خالف الحق، وتمنَّى الباطل، ودعا إليه، فليس لأولئك عنْدي هَوَادَة، ولا مناظرة، ولا مصانعة، فلْيَمُت أولئك بغَيْظِهم ولا يلومنَّ إلا أنْفُسهُمْ، ولا يبْقينَّ إلا عليها، والله ما لمن خالَفَ إلى الباطل منْ عقُوبَةٍ دون ضرب عُنُقِه!! فإنّ السيف نِعْمَ الوزير هو للحقّ وأهلِه، وقد أمر رسولُ الله- صلى الله عليه وسلّم- بالقتال على الحقّ، وقاتَلَ عليْه، فخُذُوا منِّي ما أُعْطِيكم، واعطوني ما أسألُكم، إنِّي آخذُكم بالحقّ غير معْتَدٍ بهِ وأُعطيكم الحقَّ غير قَاصِرٍ عنه: كتابُ الله وسنّةُ نبيه- صلى الله عليه وسلّم- بيني وبينكم لا يسألنّ أحدٌ غير ذلك ولا يطْمَعَنَّ فيهِ عندي"[٥٨]

وظّف سيدنا عمر هذه الخطبة توظيفًا بارعًا إذ استخدم كل ما جاش به صدره من دفاع عن رأيه، وشرحه لمنهجه السياسي الذي يتعامل به.

ويوجه خطبته إلى مخاطَب رافض للحكم وليس لديه قبول له، لذا وجب عليه توكي خطبته بأكثر من مؤكّد ونجد المقام الخطابي هنا مقام إطالة لأنه أراد أن يُعْلِمهم بمنهجه في الخلافة واعتمدت خطبته على الإقناع والاستمالة مع مراعاته للسياق الخارجي الذي قال فيه الخطبة. ويتكرر هذا النوع في أكثر من موضع، مثل خطبة (لولا رجاء أن أكون خيركم لكم ما توليتُ أمركم!!)[٥٩] وخطبة (حبيبٌ إليَّ صلاحكم!)[٦٠]وخطبة (قضيْتُ الذي عَليَّ)[٦١]

ثالثًا: مقام الخطابة الاجتماعية عند عمر بن الخطاب:

يدخل فى هذا المقام الخطابى خطب المشاركة الوجدانية فى الأحزان والمسرات، وخطب الأملاك والمخاصمات القضائية وغيرها.

وصنفها محمد العمرى إلى صنفين:[٦٢]

أ-خطب فى موضوعات اجتماعيةتتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الأملاك، والصلح والمخاصمات القضائية وهى فى أغلبها ذات طبيعة موضوعية:

ويسعى المخاطِب فى هذا النوع من الخطب إلى توضيح العلاقة بين الناس ودور كل واحد منهم فى المجتمع ويلجأ إلى الإقناع والحجج العقلية يقنعهم بتنفيذ أوامره. ونجد هذا النوع من الخطب فى أكثر من خطبة لسيدنا عمر بن الخطاب مثل خطبة (ابتليت بكم وابتليتم بى !!) خطب عمر بن الخطاب فَحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : أيُّها الناس، من أراد أن يَسْأل عن القرآن فَلْيأتِ أُبَيَّ بن كَعْب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيدَ بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فَلْيَأتِ مُعَاذَ بن جَبَل، ومن أراد أن يسأل عن المال فَلْيَأتنى فإنَّ الله جعلنى خازنًا وقاسِمًا، إنّى بادِئٌ بِأزواج النبى -صلى الله عليه وسلم - فَمُعْطِيهُنَّ، ثم المهاجرين الأوَّلِينَ الذين أُخْرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابى، ثم بالأنصار الذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسْرَع إلى الهجرة أسرَعَ

إليه العطاءُ، ومن أَبْطَأَ عن الهجرة أبطأ عنه العطاءٌ، فلا يلومنَّ رجلٌ إلا مُنَاخ رَاحِلَتِهِ، إنى قد بقيت فيكم بعد صاحبى فابتليتٌ بكم وابتليتم بى، وإنى لن يَحْضُرَنى من أمركم شئٌ فأَكِلَه إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فَلئِنْ أحْسَنٌوا لَأُحْسِنَنَّ إليهم ولَئِنْ أسَاءُوا لَأنَكِّلَنَّ بهم !!"[٦٣]

هذه الخطبة ذات موضوع اجتماعى تتناول تنظيم المجتمع وتحديد مهام كل فرد، وقد وفق فيها سيدنا عمر بن الخطاب عند استخدامه لقصر الكلمات وأنسبها، وجعلها متوافقة مع الحالة التى يعبر عنها بإسلوب فنى لفظى مقنع، فجاءت خطبته قصيرة مترابطة المعنى مناسبة للسياق الذى قيلت فيه، وغرض الخطبة هنا مجازى حيث أراد سيدنا عمر بن الخطاب تحريك همة المسلمين إلى الهجرة لينالوا العطاء الكثير؛ وجاءت الخطبة مؤكدة بأكثر من مؤكد لأن المتكلم عالم بحال المسلمين فى ذلك الوقت وكثرة اعتراضهم على أمور توزيع المال.

ونجد أمثلة هذا النوع من الخطب فى خطبة (الرجل وبلاؤه في الإسلام)[٦٤] وخطبة (أنا أبو العيال)[٦٥]وخطبة (أريد العدل والسوسية)[٦٦]وخطبة (كيف يرث الجدُّ)[٦٧]

ب- خطب ذات طبيعة وجدانية هدفها المشاركة والإشراك فى المسرات والأحزان، كالتعزية والتهنئة ووصف المشاهد والبلاد:

فى هذا النوع من الخطب يكون المقام الخطابى مقام تأثير واستمالة لأن قصد المتكلم متوجه إلى إظهار ما يجده من حزن أو فرح لدى المخاطَبين وإشعارهم بمشاركته إياهم وتعاطفه معهم، ويلجأ المتكلم أحياناً فى هذا النوع من الخطب إلى وصف المشاهد والبلاد التى لم يعرفها المتلقى من قبل. مثل وصف سيدنا عمر بن الخطاب للجنة فى خطبة (هل تدرون ما جنات عدن ؟!) عن قيس بن أبى حَازِم قال: خطب عمر بن الخطاب الناس ذات يومٍ فقال فى خُطبته:

"**إن فى جنات عَدْنٍ قصرًا له خَمْسُمِائة بابٍ على كل باب خمسة آلاف من الحُورِ العِين لا يدخله إلا نبىُ- ثم التفت إلى قبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: هَنِيئًا لك ياصاحبَ القَبْرِ، ثم قال: أو صِدّيق، ثم التفت إلى**

قبر أبى بكر فقال: هنيئًا لك ياأبا بكر ثم قال: أو شَهيد- ثم – أقبلَ على نفسه فقال: أنَّى لك الشهادةُ ياعمر!! ثم قال: إن الذى أخْرَجَنى من مكة إلى هجرة المدينة قادر على أن يَسُوقَ إلىَّ الشهادةَ"

وفى رواية عن مجاهد قال: قرأ عمر على المنبر: (جَنَّاتِ عَدْنٍ) فقال:

" أيها الناسُ هل تَدْرُون ما جَنَّاتُ عَدْنٍ؟ قَصْرُ فى الجَنَّة له عشرةُ آلاف باب على كل باب خمسة وعشرون ألفًا من الحُور العين لا يدخله إلا نبىَّ أو صِدِّيقُ أو شَهِيدُ"[٦٨]

وصف سيدنا عمر بن الخطاب الجنَّة للمخَاطبين ولم يستخدم أسلوب التوكيد كثيرًا لأنه عالم بأن المتلقى الذى أمامه جاهل بوصف الجنة ويحتاج إلى شرح وتوضيح فحاول رسم الجنة فى ذهن المتلقى، ولم يلجأ إلى الإقناع أوالاستدلال لأن الخطبة هنا تقتضى مقام المشاركة الوجدانية وإشعار المتلقى أنه يقاسمهم مشاعرهم، والمتلقى فى هذه الخطبة فى وضع إنصات فلم يجادل المتكلم لأنه مشتاق لسماع وصف الجنة التى لم يعرفها.

من خلال التحليل السابق لمقامات الخطابة نلاحظ ارتباط الخطب بالمقامات التواصلية التى نشأت فيها، ولم ينفصل التواصل البلاغى فى نصوص هذه الخطب عن المقاصد التداولية التى تحرك أطراف العملية التواصلية .

فإذا كان الغرض البلاغى فى هذه الخطب هو الإقناع الجمالي والتأثير الروحي الوجداني فى المتلقى فإن الغرض التداولى أيضًا للخطب هو إقناع المتلقى عقليًا ونفعيًا لما يريده الخطيب من نص خطبته.

ومن أمثلة هذا النوع على سبيل التمثيل لا الحصر خطبة (الله لا يضيّع دينه وخلافته)[٦٩] وخطبة (لستُ بملك فأستعبدكم)[٧٠] وخطبة (في الخمر)[٧١]

ومن كل ماسبق؛ نلاحظ مراعاة سيدنا عمر بن الخطاب للمقام الخطابى الذى يقول فيه خطبته، ومراعاته أيضا لحالة السامع الإجتماعية والنفسية، والحرص على أن يكون بينه وبين المسلمين قناة اتصال أثناء الخطبة مستخدمًا قدرته اللغوية والتخاطبية حتى يصل إلى إقناع المتكلم بغرضه من الخطبة.

[١]- آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم- علم جديد في التواصل، ت: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣، ص١٠.

[٢]- ابن منظور: لسان العرب، ت: عبد الله على الكبير وأخرين، دار المعارف، القاهرة، دت، مادة بلغ، ص٢٤٦،٢٤٥.

[٣]-ابن خلدون : المقدمة، ت: عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، المجلد الثاني، ص١٠١١

[٤]- محمد بركات حمدي أبو علي: مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، دار البشير، ط١، الأردن ١٩٨٨، ص١١٣.

[٥]- السكاكي: مفتاح العلوم، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ، لبنان ص ١٧٠.

[٦]- المرجع السابق، ص ١٧١.

[٧]- الزمخشري: أساس البلاغة، مادة (سَوَقَ) دار مطابع الشرق، القاهرة ١٩٦٠، ص٤٦٨.

[٨]- ابن منظور: لسان العرب، مادة (سَوَقَ) ، مرجع سابق، ص ٧٥٢.

[٩]- الجاحظ: البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، الجزأ الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٣٨، ١٣٩.

[١٠]- أبو هلال العسكري: الصناعتين (الكتابة والشعر) ت: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ١٩٨٤، ص ٣٧.

[١١]- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

[١٢]- السابق نفسه، ص ٢٥٦.

[١٣]- السابق نفسه، ص ٢٥٦.

[١٤]- تمام حسّان: الأصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

[١٥]- للاستزادة: السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٢٥٦، ٢٦٦.

[١٦]- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية- مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم،ط١، بيت الحكمة،الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١١٤.

[١٧]- عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، ط١، ص ٤٠.

[١٨]- إدريس مقبول: الأفق التداولي – نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠١١، ص ٦٢.

[١٩]- انظر: فرانسوازأرمينكو: المقاربة التداولية، ت: سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، الرباط ١٩٨٦، ص ٤٩، ٥٠.

[٢٠]- للاستزادة: عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٢، ٤٣، ٤٤.

[٢١]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب،دار الطليعة، ط١، بيروت ٢٠٠٥ ، ص٢٠٣.

[٢٢]- إدريس مقبول: الأفق التداولي، مرجع سابق، ص ١٥٤.

[٢٣]- أبو هلال العسكري: الصناعتين، مرجع سابق، ص ١٥

[٢٤]- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٢٤٧

[٢٥]- عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق ، ص ٢٤.

[٢٦]- عبّاس حشّاني: خطاب الحجاج والتداولية – دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي ، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠١٤، ص ١٠٧.

[٢٧]- حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، العدد١، المجلد ٣٠، ٢٠٠١، ص ١٠٨.

[٢٨]- الجاحظ: البيان والتبيين، الجزأ الأول، ص ١٣٨، ١٣٩.

[٢٩]- نفسه: ص١٤٤.

[٣٠]- العسكري: الصّناعتين، مرجع سابق، ص ٣٩.

[٣١]- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، مرجع سابق، ص١٦٦، ١٦٧.

[٣٢]- عبّاس حشّاني: خطاب الحجاج والتداولية (دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي) ص ١٠٨.

[٣٣]- عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء، ط٢٠٠٢،١، ص ٤٣.

[٣٤]- انظر: السابق نفسه، ص ٤٣.

[٣٥]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووصاياه، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٥، الخطبة رقم (٢٥) ص ٥٧.

[٣٦]- للاستزادة: محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي – مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، ط٢، لبنان ٢٠٠٢، ص ٤٠: ٦٧.

[٣٧]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، دار الاعتصام، ١٩٨٥، ص ٧٨. (لاينهزه: أي لا يدفعه ولا يحركه)

[٣٨]- عيد بلبع: السياق وتوجيه الدلالة مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨، ص ٥٩٩.

[٣٩]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بين الخطاب ووصاياه، خطبة رقم (٢٠) ص ٤٤.

[٤٠]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٢٣)، ص ٥٢.

[٤١]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٤٩) ص ٧٤

[٤٢]- السابق: الخطبة رقم (٥٠) ص ٧٥

[٤٣]- السابق: الخطبة رقم (٤٣) ص ٧١.

[٤٤]- السابق: الخطبة رقم (٤٢) ص ٧٠.

[٤٥]- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٤٣.

[٤٦]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، الخطبة رقم (١٠) ص ٣٥. القباطيّ: جمع قبطية، وهي ثياب من كتان بيض رقاق كانت تنسج بمصر منسوبة إلى القبط. الكفاف: هو الذي لا يَفْضُل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه. الحتف: الهلاك. حديد الفؤاد: أي شديداً نشيطاً.

[٤٧]- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٤١.

[٤٨]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، الخطبة رقم (٦) ص ٢٩.

[٤٩]- السابق نفسه: الخطبة رقم (١٨) ص ٤٢.

[٥٠]- السابق نفسه، الخطبة رقم (٦١) ص ٨٤.

[٥١]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٢٠) ص ٤٤.

[٥٢]- المرجع السابق، الخطة رقم (٥٧) ص ٨٠. ترجله: أي تسرح شعر رأسه وتنظفه. القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

[٥٣]- للاستزادة انظر: محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٥٠: ٥٧.

[٥٤]- محمد أحمد عاشور: خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخطبة رقم (٣٦) ص ٦٧.

[٥٥]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٢٦) ص ٥٧.

[٥٦]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٣٧) ص ٦٨.

[٥٧]- السابق نفسه: الخطبة رقم (١٥) ص ٣٩.

[٥٨]- المصدر السابق: الخطبة رقم (١٣) ص ٣٨.

[٥٩]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٨) ص ٣٣

[٦٠]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٩) ص ٣٤.

[٦١]- السابق نفسه: الخطبة رقم (٣٥) ص ٦٦.

[٦٢]- للاستزادة: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٦٢، ٦٧.

[٦٣]- محمد أحمد عاشور: خطب عمر بن الخطاب ووصاياه، الخطبة رقم (١٧) ص٤١

[٦٤]- المرجع السابق: خطبة رقم (٥) ص ٢٨.

[٦٥]- المرجع السابق: الخطبة رقم (٧) ص ٣٢.

[٦٦]- المرجع السابق: الخطبة رقم (٢٥) ص ٥٦.

[٦٧]- المرجع السابق: الخطبة رقم (٥٦) ص ٧٩.

[٦٨]- المرجع السابق: الخطبة رقم (٨٢) ص ٩٥.

[٦٩]- المرجع السابق: خطبة (١٠١) ص ١٠٦.

[٧٠]- المرجع السابق: خطبة رقم (٣١) ص ٦٢.

[٧١]- المرجع السابق: خطبة رقم (١٠٠) ص ١٠٥.